

زنبقة الغور

رواية اجتماعية متتابة

✽ بقلم ✽

ابن
البحراني

— ملخص ما نشر سابقاً —

فرت ساره من بيت ابيها الجبال في مدينة جنين لحادث اصابها واضغط زوجة ابيها عليها وظلها . فاقامت في قرية في مرج ابن عامر لتستر عارها ريثا ينقضي امرها . فولدت طفلاً مريضاً ثم رحلت تقصد ابن بلدها المعلم الياس بلان في قرية صفوريه فعملت انه غادرها وترهب في الناصرة فقصدته في ديره طالبة مساعدته فوضعها في الدير لتخدم . ثم استهواها فاستسلمت اليه . وفر بها من الدير الى قرية كفر كنا وقد وعدما ان يتزوجها ولكنه تركها هنالك غادراً بها وهرب الى لبنان . فوضعت ساره بنتاً وجاءت بها الناصرة فنبذتها عند باب دير اليتام . وراحت تفتش عن خادعها في لبنان وسوريا فلم تجده فعادت بعد سنين طويلة الى الناصرة فراها القس جبرائيل مبارك في باب ديره فارتعش وعرف بها الفتاة التي اغواها في صباح يوم كان ابوها جمالاً يخدم اياه في جنين . فكتمها نفسه ورق لها فادخلها الدير لتخدم فيه . وهنالك تعرفت بفتاة تدعى مريم تخدم في دير اليتام فحنت لها جوارحها . وبينما ساره نائمة اثناء وعيها المواشي لدغتها حية واشرفت على الموت . فاستدعت القس جبرائيل واعترفت له وتوسلت اليه ان يستدعي مريم لتودعها واوصته ان يسأل عن اصلها ويعتني بها فوعدها القس خيراً وكشف لها نفسه مستغفراً عما جناه عليها في صباحا . ووضع القس مريم تحت عنايته حسب وصية ساره فسالها عن حياتها في الدير فشكت اليه ما تقاسيه هنالك من الضغط . فرق لها وذهب الى دير اليتام بخبر الرئيسة بشأنها وخرج حائفاً مستاءً مما شاهده من فساد ملاجي اليتام . ولكن مريم لم تستطع احتمال حالتها فهربت من الدير في اليوم التالي ولجأت الى القس جبرائيل فادخلها تخدم في بيت اخيه الوجيه يوسف انندي وزوجته الست هند

(الفصل الرابع)

مثل الست هند من النساء تدعى عند العرب الاخصائيين امرأة ز نمر دة . ولكننا نكتب لابناء العرب لا لاجدادهم ولجمهور الناس لا للاخصائيين . لذلك نتحرى البساطة في الوصف والتعبير ولكن اللبيب اذا تدبر هذه اللفظة العبلة الرجاجة وحللها يجد فيها الفاظاً عديدة تدل على ذكاء واضمحاض وصفات المتصفة بها . كيف لا وفيها . « زنى » و « مُرد » و « تمرد » وغير ذلك من مفاتيح اسرارها . ولكننا لا نرمي الست هنداً بها لانها تكبر تارة على بعض معانيها وتارة تصغر عنها . ففي لغتنا وطريقتنا اذاً نحاول ان نفيها حقها .

الست هند ربيبة السويداء وعشيرة الرهايين . كأنها ادركت قول الشاعر . « ولكل شيء آفة من جنسه » فراحت تداوي سويداءها بسود الثياب وسود اللحى . وكانت تتداخل في سياسة الاديرة لسد فراغ في وقتها فتلعب بالرهبان كما تلعب بالقمح وتدخلن الاركيعة عند جثة خصمها كما لو كانت تقرأ في ديوان احد شعرائها المحبوبين . وهي آية في الحفظ . ترغب بالمطارحة وتحب المكافحة فترمي جليساها ببيت شعر من صفى الدين الحلبي او زهير او الفارض فتصرعه وتحرق فواءه . ثم تزجر الخادمة وتضربها لاباطها بكأس ماء او فنجان كنيك . ولم تكن في الناصرة امرأة تحسن مثلها لعب القمار ورواية الاشعار وسياسة الرهبان وزجر الخدم . والسبب في غوايتها وادائها ظاهر بسيط . فقد تزوجت صغيرة . وخبرت الحياة

الزوجية صغيرة . وكبرت صغيرة . اجتازت اربع مرات حجيم الولادة قبل ان تجتاز الخامسة والعشرين من سنها . ولم يعش من اولادها غير واحد ربي منعماً . فنشأ مختثاً . فشب شقيماً . تلقن شيئاً من العلوم في كلية من كليات بيروت فدفنه في مواخيرها وقهاويها قبل ان يعود الى بيته . وتعرف برجال الشحنة وزار مرة السجن اتماماً لدروسه . وكان يدمن الخمر احتراماً لابيهِ ويقامر حتى الفجر توفيراً لامه

ولقد طالما استلقت القس جبرائيل نظر الابوين الى ابنهما عارف وحذرهما من عواقب امره . فاغفلت الست هند نصيحة سلفها وكرهته لانه لم يكن مثل سائر الرهبان من عباد محاسنها . فلا يحضر مجلسها . ولا يحرق البخور امامها ولا وراءها . وما الراهب في عينها غير باب فرج للمرأة او ستر لسوءتها ومتى كانت المرأة مثلها كريمة المحتد ربيبة المجد ينبغي ان يكون الراهب خادماً لها واذا كانت جميلة ايضاً ففارساً من فوارسها ومجاهداً في سبيلها . ولكن محاسن الست هند ولت باكرآ فلم يبقَ منها غير سحر في لحظها . وخلاصة في لسانها . وحرارة تُغري عند ادبارها

وكان بيتها صورة مجسمة لنفسها . يضح بالامتنعة الفخمة النافرة بعضها من بعض . ويمثل في كل غرفة منه مأساة كل يوم . فترى الذوق مذبوحةً على الديوان . والترتيب مشنوقاً في الدار . والاقتصاد مجندلاً عند قدمي البذخ والاكثر .

تظل الصورة مثلاً مائلة او مقلوبة على الحائط شهراً فلا تستلقت نظر

المخادمة اليها ولا تحفل بها . يجد الزائر السكاير مبددة على الدواوين والطوائف والكراسي فاذا احب اشعال سيكارة تفتش المخادمة ساعة عن علبة الكيريت . ثم تجيء والقوز يتلألاً في وجهها حاملة بملقط صغير جمرة كبيرة . ويدها اليسرى كالصينية تحتها . فتتفتت الجمرة . فتحرق يدها . ثم السجادة ثم الديوان . ثم ثوب الزائر . ولا ينجو من الحريق غير السيكارة السيدة الطالع . في روض الست هند العاطر يذبل الورد على صدر امه ويموت . والاواني الصينية الفخيمة في بيتها تثن وتناوؤ من الازهار الاصطناعية فيها . في غرفة الست هند على مغسلة من الجوز فاخرة تزدهم قناني العطر والطيب . وحناجير الادهان والمعاجين . وعلب المساحيق . والادوية والزيتون لتحصين البشرة وتطويل الشعر . وليس هناك مقرض اظافر او فرشاة اسنان

وهذه امثلة صغيرة من غرائب هذا البيت وسيدته قبل ان دخلته مريم . ولم يمضِ عليها شهران فيه حتى تجلت في ترتيب فرشه وغرفته وامتنعت ولواتيه روح انيقة جديدة . وقد احدثت فيه ثورة لا بد من تدوينها وبدعة في غرفة المائدة تستحق الذكر .

دخلت مريم صباح يوم حجرة سيدتها تحمل باقة من الورد وضعتها في الاناء الذي كان فيه ازهار اصطناعية ورفعته تبتجع وتقول . أليس الورد يا معلمتي احسن من هذا القماش الوسخ ؟ فاجابتها الست هند . بلى بلى الحق معك . فسرت مريم باستحسان سيدتها وأقدمت على العمل الذي كانت تفكر فيه . ولقد طالما ثار ثائرها على الزهور الاصطناعية فوجدت

في بيت مبارك ما يكفي لاضرام نار الثورة في سبيل عرائس الحقول وربات الرياض . وكانت تأخذ كل يوم طاقة من تلك الطاقات الكبيرة التي تضيع الراهيات في صنعها رقتهنّ الثمين وتخبتها في غرفتها وتضع في الاناء مكانها اضمائة من ازاهر الجينية ورياحينها ولما خلعت كل تلك العرائس الكاذبة من عروشها جمعتها ذات ليلة على السطح وسكبت فوقها ابريقاً من زيت التيرول ودعت الخادومات رفيقاتها الى الجنازة . ولما حضرن اضرمت في تلك العرمة النار واخذت بايديهنّ فرقصن حولها ضاحكات ومريم تصيح مقلدة اليهود الدوارين . خام وشيت ومقصور !

ولم يفظ هذا العمل الست هند مثلما غاظها قول مريم ان مفسلتها تفتقر الى فرشاة اسنان .

— يقطع عمرك ! وأين رأيت انت فرشاة اسنان ؟

— عند الرئيسة في الدير . وهي تنظف اسنانها صباح مساء . يا عمري

ما اجمل اسنانها !

— اجمل من اسناني يا مريم ؟

— اسنانك يا معلمتي صفراء —

فاكفهر وجه الست هند وهمت بضرها فاستدركت الفتاة قائلة — لا توء اخذيني ولكن الرئيسة لا تدخن بالاركيلة مثلك . الله يقطع الاراكيل قهي توسخ الاسنان .

— اسكتي . وقحة . ثرثارة !

وبعد ايام رأت مريم فرشاة اسنان على منسلة سيدتها فضحكت وقالت في نفسها

— ما احلى معلمتي ! تشتمني وتقبل نصيحتي

والحق يقال ان الست هنداً تحب مريم سرّاً وتعجب بها . وتكرهها سرّاً ايضاً وتخشاها . لانها اجمل وايرع خادمة دخلت بيتها . وكانت اذا اتى زوجها على الفتاة تسكت او تغير الحديث

— يا هند ما رأيت زماني مثل هذا الترتيب في البيت . فنفرت قائلة

— وما علمك انت بالترتيب . لا تدلع الخدم فيظل البيت مرتباً

فلم يحفل يوسف افندي بما قالت

— وهذه الازهار — جميلة ! جميلة ! كأن الجينية جاءت تشاركنا بيتنا

— وانت تشارك الكل — هل يحيي المطران الليلة ؟

— نعم . وسيجيء رئيس الدير ايضاً . والقائمقام

وذهب يوسف افندي الى محكمته وهو يفكر في الطريق بالفتاة مريم

ويمثل لنفسه جمالها وذكائها وتفنتها فيبتسم فواءه جذلاً واعجاباً .

اصدرت الست هند في ذلك الصباح اوامرها . فجاءت مريم تسأل

الطابخة عن العشاء وألوانه فاخبرتها

— والنبيذ —

— وما غرضك من كل هذا — تندخلي دائماً بما لا يعنيك — روجي

الى شغلك

الدور الثالث روستو عجل تشيعه كهاة السنة . سلطة هندباء ورشاد .

شمانيا مم .

الخاتمة معمول . عيش السرايا . مشمش حموي وخوخ افرنجي

ولما جلس الضيوف الى المائدة اعجبوا باتقانها وترتيبها وادهشت قائمة

الطعام حتى الست هند . فقال المطران والقائمة في يده

— هذا شيء جديد على المائدة العربية يا يوسف افندي

— الخادمة الجديدة يا سيدنا تجيئنا كل يوم بامر عجيب

— وهل هذه اختراعها ؟

— علمي والله علمك . اسألها

فقال القائلنقام . لا شك ان الست هنداً —

فقاطعه ربة البيت قائلة — لا . وحياتك . لا علم لي بها

فاوقف المطران مريم وهي تقدم الشوربا وسألها قائلاً

— هل هذا خطك يا بنتي ؟

— نعم يا سيدنا

— ومن علمك كتابة هذه القائمة ؟

— رأيت واحدة بالافرنسية عند الرئيسة في الدير كانت تحفظها ذكراً

المأدبة حضرتها لما كانت في باريس . فخطر في بالي ان اكتب مثلها في العربية

فتعرفون منها في الاقل ما يقدم لكم

— ولكن عادات المطاعم لا يجري عليها في بيوت الاماجد

— دخيلك يا لطيفة اخبريني

— يا لطيف يا ستار ! مثل العاده يا بنتي . عرق وسبعلي مر . وقبرصي

اصفر . وشمانيا . خلصيني منك

قراحت مريم الى غرفة سيدها فاخذت من مكتبه قلماً ودواة وطلحيتين

من الورق الشبيه بالرق الذي يستخدم في المحاكم واختلت ساعة في حجرتها

ولم يدر احد بما صتمت . وبعد الظهر رتبت المائدة ترتيباً جميلاً فوضعت

باقة من الورد في اناء على الخوان . وقرنفلتين واحدة حمراء واخرى بيضاء

عند كل صحن والى جنبها صحيفة مثبتة الى قدح تبدو منه فوطه المائدة

كالزنبقة البيضاء وقد خط في تلك الصحيفة بالمخط الكنائسي ما يلي —

قالت الحكماء — « من قل طعامه صح جسسه وصفا قلبه »

— (ألوان الطعام) —

القائمة سنموره . قلب ارضي شوكة مكبوس . سلطه بطاطا وبيض .

فجل افرنجي . زيتون شامي . عرق زحلاوي مثلث

الدور الاول شوربة بزلا . سمك مشط بطرطور . باميه خضراء بلحم

وارز مفلفل . نبيذ سبعلي مر .

الدور الثاني كبة ارنبيه . حجال مقليه ومطرزه بالفطر والبندوره .

نبيذ قبرصي اصفر .

- وهذه العبارة • قالت الحكماء
- قرأتها في كتاب • والراهبات في الدير دائماً يرددنها ويذكرن البنات بها • كنا نجوع اكراماً للحكماء •
- واليوم اخذت بشارك منا • ها ها ها ! ما رأيت حياتي اذكى من هذه الفتاة اهنتك يا ست هند بها • وانصح لكم يا سادة ان تعملوا بقول الحكماء • يظهر من هذه القائمة ان يوسف افندي يريد بنا شر
- لا اكره ايها السيد لا في الدين ولا في الطعام
- ولكننا بشر يا ابني وضعفنا رأس مال ابليس
- انا استعفي من الدور الثاني
- أتبرهن لنا يا سعادة القائمقام انك حكيم • لعمرى ان الحكماء اضعف البشر وابليس يزدرهم ولا يحفل بهم
- الدور الثاني احسن ما في القائمة • هل الحجال صيد اليوم ؟ • نظر رئيس الدير الى الست هند ولاحت في عينه ابتسامة
- واذا كانت من صيد البارح ؟
- عفواً يا ست هند • لا تستثلي التعت من راهب معدته عاصية عليه
- وانت دائماً تبرطلها بالماآكل الضخمة
- بل اعاقبها تأديباً لها وانتقاماً منها • ليت الراهب يستطيع ان ينزع معدته قبل دخوله الدير •

(ستاني البقية)